Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهو يعلن في مقدمة (البئر الأولى) أنه لا يكتب تاريخاً لفترة طفولته، ولا لأسرته، ولا يكتب تحليلاً اجتماعياً لبلدته الفلسطينية بيت لحم، بل يكتب ماهو شخصي بحت، وطفولي بحت، ومقتربه يتركز على الذات إذ يتزايد انتباهها.

من أجل ذلك يتجاوز الكاتب ماسبق أن استعاره من فترة طفولته ووظفه في مقالاته أو قصصه أو رواياته. ويشير إلى بعض ذلك في الهوامش (قصة الغرامفون مثلاً من مجموعة عرق وبدايات من حرف الياء). وهكذا يدع للدارسين أن يستخلصوا ماهو سيريّ في كتاباته الأخرى، وأن يفهموه كيفما شاؤوا، لينصرف هو إلى الكثير الذي ظل خارج تلك الكتابات.

غير أن منهجيّة أو معيارية الكاتب في كتابة سيرته لا تنجلي إلا بمتابعة البنود التالية في مقدمة (البئر الأولى):

البند الأول: تأكيد الكاتب على أن (البئر الأولى) هي قصة البراءة المفقودة ومحاولة استعادتها، أي: قصص الطفولة. فالطفولة ليست قصة واحدة، بل قصص متباينة يصعب أحياناً وصلها، رغم تواتر شخصياتها، إلا بشيء من الحيلة الروائية. يقول: "قصص الطفولة إذن هي قصص أحداث غدت مزيجاً من الذكرى والحلم، مزيجاً من الكثافة الوجودية والغيبوبة الشاعرية". ويأخذ الكاتب على معظم كتّاب السيرة، أينما كانوا، أنهم ينظّرون لطفولتهم بعين النضج (زمن الكتابة)، ويستبقون النقاد بشأن تجربتهم إذ يعلقون هم عليها، ويستعجلون القلم لبلوغ المرحلة الأهم في نظرهم: المراهقة.

والبند الثاني: هو اعتراف الكاتب باضطراره إلى الحذف والانتقاء، متعللاً بإدراكه مشكلة الكاتب الأبدية في التوفيق بين سيولة التجربة وشكلانية الكلمة. أما البند الأخير فهو رفضه أن يعلم أحد بتفاصيل ظروفه المعيشية القاسية في القدس سنة 1945. ومع أن هذا الرفض يتجاوز الطفولة ويميل إلى كتابه السيري التالي (شارع الأميرات)، إلا أن هذا الرفض هو في صلب منهجية أو معيارية كتابة الكاتب للسيرة، والتي يترجّع فيها الصدى الجهير في السيرة الذاتية العربية، كما شخّصه يحي إبراهيم في كتابه (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث-1974)، بنفيه أن يكون كتّاب الترجمة الذاتية في أدبنا على امتداد عصوره حتى اليوم، قد بلغوا فيما صرحوا فيه عن أنفسهم مبلغ تعرية النفس والمكاشفة الفاضحة